العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

إشكالية تلقي السيميائيات بين أركيولوجيا التصور و تأصيل المصطلح.

نادية خطار

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

تمهيد:

إنّ محاولة القبض على معالم النظرية السيميائية السردية لدى (غريماس) يفرض علينا بداهة تقصي أصولها بوصفها الإرهاصات التي أدّت إلى ميلادها، ذلك أنّ إسهامات (غريماس) النظرية والتطبيقية في مجال السيميائيات السردية لا يمكن أن تؤخذ بمعنى مبتور ومستقل عن أيّ انتماء لأيّ اتجاه فكري أو منهج نقدي أو مدرسة معينة من ثمّ، فإن تمثل هذه المدرسة أمرٌ عصي ولن يتأتى إلاّ من خلال الوقوف عند أسسها باعتبارها مرحلة المكاسب التي استمدت منها مشروعية حضورها الفاعل في الأوساط النقدية .

مما لا مراء فيه، أن العلوم لا يمكن لها أن تؤسس لكيانها بوصفها علما إلا من خلال الربط بين نسقين ضروريين هما: النسق المفهومي و النسق المصطلحي، انطلاقا من أن النسق المفهومي يرتبط بحقل معرفي أو بميدان أو مجال علمي أما المصطلح فيرتبط بنسق اللغة.

إن ما يربط بين النسقين المفهومي و المصطلحي هو علاقة قصدية تهدف إلى تحقيق غاية التواصل مما يعني؛ أن هناك علاقة تكاملية تؤدي في الأخير إلى التأسيس لنسقية جامعة؛ هذه الأخيرة تحددها جملة من الحقول المعرفية على الرغم من اختلافها ، تباينها و تعددها إلا أنها تتوحد من أجل صياغة المفهوم تكوينه و تأديته.

إذا، من بين الإشكاليات التي يكابدها طالب الدكتوراه إثر تلقيه لهذا الحقل المعرفي لا تتوقف عند حدود ترجمة المصطلح النقدي السيميائي أو فوضى ترجمته بين المحافل الأكاديمية الجزائرية على الرغم من أنها تعد معوقا عويصا إنما تنزاح عن ذلك و تتعداه إلى تمثل هذا المصطلح، هذا الحقل المعرفي ولن يتأتى لطالب الدكتوراه ذلك إلا بالعودة إلى الأسس الأولى والأنماط البدئية وتقصي الحفريات التي أدت إلى ميلاده انطلاقا من أن المصطلح السيميائي شفرة مختزلة وعلامة مشحونة بكم هائل من المفاهيم و من غير الممكن استعاب جاهزية هذه المصطلحات دون تقصي العتبات البدئية التي أدت إلى ميلاده.

إذ من بين الحلول للتقليص من وقع ذلك الحرج الذي يكابده الباحث أو طالب الدكتوراه إثر شروعه في القبض على معالم الدرس السيميائي هو العودة إلى الأسس الابيستيمولوجية و الوقوف عند المنطلقات التي أدت إلى ميلاد هذا المتصور العلمي هذا ما نقصده بأركيولوجيا التصور أما الأركيولوجيا ARCHEOLOGIEتعني (علم الآثار؛ أي ذلك العلم الذي يبحث في الآثار المادية للحضارات المندثرة عن طريق الحفريات ، حيث يقوم بدراستها و تحليلها و تركيبها)1.

يفترض مصطلح أركيولوجيا إذا، أن هناك وقائع مخفية ينبغي الكشف عنها و البحث في أصولها من أجل الوصول إلى بنيتها المكونة وعليه، نرمي من خلال توسلنا بهذا المصطلح إلى الكشف عن أرشيف بعض مصطلحات النظرية السيميائية السردية لدى رائدها "ألجيرداس جوليان غريماس" بغية الكشف عن المجال الابيستيمولوجي الذي استعار منه "غريماس" معالم سيميائياته المحايثة أي؛ البحث والكشف عن ذلك الجماع الذي شكل مرحلة مكتسبات بالنسبة لسيميائيات "غريماس" لأنه من بين المعوقات التي تواجه طالب الدكتوراه ترسانة المفاهيم التي يغدقها عليه هذا الحقل نحو:المحايثة، المربع السيميائي، الأنموذج العاملي ،العامل، المسار السردي، الكفاءة، البنيتين العميقة و السطحية...إلخ.لكن بالعودة إلى الإشتقاقات الأركيولوجية تتضح لدى الباحث بعض الزوايا العتمة التي من شأنها أن تسهل عملية إدراكه.

إن مقتضى جملة الإشكالات المطروحة والتي تؤسس جوهر هذه المداخلة تتلخص عبر مساءلات وفحواها في الآتي:إلى أي مدى يمكن تقريب المتصور السيميائي في البحث الجامعي لدى طلبة الدكتوراه؟ هل من حلول عملية نوصي بها طالب الدكتوراه لتمكينه من ضبط مفاهيم هذا الحقل المعرفي وآليات اشتغاله؟إلى أي مدى يمكن استثمار المقاربة السيميائية السردية في مقاربة نسق النص لدى طالب الدكتوراه؟ كيف يتشكل المتصور السيميائي ويتكون المفهوم ويؤسس المصطلح؟ وهل من علاقة جامعة بين هذه القضايا؟كيف انعكست هذه القضايا على سياق الاشتغال السيميائي في الجامعة الجزائرية؟ و على تجربة البحث لدى طالب الدكتوراه؟ وهل يتأتى لطالب الدكتوراه تمثل حقل السيميائيات في غياب العلوم الأخرى باعتبارها حقلا مؤسسا و نمطا بدئيا تمخضت عنه و أدت إلى ميلاده؟....؟....؟.

تمتح السيميائيات السردية محددات تأصيلها من مصادر متعددة؛ الشكلانية الروسية(فلاديمير بروب) الأنتروبولوجيا البنوية(كلود ليفي شتراوس)، الإرث اللساني المعاصر(فرديناند دي سوسير ، لويس يلمسليف، نعوام تمشومشكي ونظرية العوامل (لويس نتيير) المسرح (ايتيان سوربو)، ومن بعض الروافد المنطقية والرياضية الحديثة (تصورات مجموعة كلين) ...الخ .

ساهمت مجموع هذه الروافد على الرغم من تعدد مصادرها وتنوع مجالاتها في إرساء نظرية عامة للدلالة وتحديد أهدافها ومقاصدها ممّا يدلّ على مدى قدرة هذه النظرية على استيعاب جهازها المعرفي بمجموعة من المفاهيم نحو: دال / مدلول ، تعبير / محتوى ، شكل / مادة ، كفاءة لغوية / أداء كلامي ، نظام / سيرورة ، استبدال / تركيب ...إلخ ، هذا

العدد: 05/سبتمبر2012 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص:61 - 78
EISSN: 2602-5973

من جهة ومن جهة ثانية الأفق النظري المفتوح لهذه النظرية، حيث إنّها لا تكتفي عند مجرد كونّها نظرية تواصلية تسعى إلى دراسة التواصل اللّساني وضبط قواعده؛ لأنّ الدلالة من منظور" غريماس" لا تكشف عن مضمراتها إلاّ عبر اللّساني وغير اللّساني كما أنّه بإمكانها أن تتمظهر في أشكال مختلفة وفي كلّ الظواهر الحسيّة بما فيها الأصوات، الصور،... والروائح وفي هذا الصدد يذكر" غريماس " أنّ(بإمكان الدلالة أن تختفي وراء كل الظواهر الحسيّة ، خلف الأصوات والصور والروائح إلخ)[2]، إلاّ أنه على الرغم من ذلك يعّد النسق اللساني أرقى هذه الأنساق وأهمها .

ـ موضوع السيميائيات السردية:

إنّ السيمائيات السرديّة باعتبارها مشروع بحث جديد هي حلقة تصور لإنتاج المعيار، إذ تعدّ من أهم الدراسات الحديثة التي ترنوا إلى إنشاء نحو كوني ونظرية عامة للأنساق الدّالة على اختلاف أجناسها وتعدّد صيغها وتباين مجالاتها.

فانطلاقا من كتاب"الدلاليات البنوية"ل"ألجيرداس جوليان غريماس" الذي قدّم ضمنه رؤية مغايرة ونظرية جديدة في التّعامل مع الدّلالة، لم يعد الاهتمام بالدّلالة ينحصر في تقديم وصف لجوهر المعنى وماهيته، وإنما أضحى اهتمام(غريماس)وتلامذته يهدف كذلك إلى(توضيح شروط القبض على المعنى وعلى طرق إنتاجه)[3]أي، تتبع انبناء شكل المعنى لكن، هل يمكن للمحلّل السيميائي تقديم وصف للمعنى؟.

يذهب(غريماس) إلى القول بأنّ المعنى كقضيّة شغلت المفكّرين والباحثين واللسانيين، المنطقيين والدّلاليين...الخ لا يمكن لأحد أن يشكّك في وجوده لكن من الصعب الكلام عليه، ولتحقيق هذه الغاية لا بدّ لنا من إيجاد (لغة خالية من المعنى ولكنّها تمتلك قابلية التّشكل)[4].

لكن، كيف يمكن للمعنى أن يتشكّل؟.

إنّ المعنى من منظور(غريماس) يمتلك قابلية التّشكل ممّا يتيح للمحلّل السيميائي إمكانية تقديم وصف له من خلال علاقات التقابل، لأنّ هذه العلاقات هي التي تمظهر المعنى ومن تمّ تقدّم له وصفا. هذا يعني، أن تشكّل المعنى وتقديم وصف له يرتهن لشروط (إنتاجه فطبيعة المعنى في علاقة متينة بكيفية إنتاجية)[5] من ثمّ، فإنّ موضوع السيميائيات السردية هو اكتشاف المعنى، هذا يعني أنها (لا يمكن أن تختزل في وصف التواصل وحده)[6] . باعتبار السيميائية تعالج المعنى وتهدف إلى تقديم وصف له فهي لا يمكن أن تكون(إلّا نقلا لمستوى من الكلام داخل آخر مختلف ، من زاوية النظر هذه فإنّ السيميائية تتحدّد كلغة ثانية لغة واصفة)[7](ميتالغة métalangage) بالنسبة إلى عالم المعنى الذي تتخذه موضوعا للتحليل.

– مبدأ المحايثة :

يلجُ الإرث اللساني السيميائيات السردية ويتوحّد معها في جملة من المبادئ ، أهمها "مبدأ المحايثة Immanance " الذي يعدّ من المفاهيم الأساسية المستثمرة في السيميائيات السردية ، حيث يكتسي بالنسبة لهذه الأخيرة أهمية كبيرة.

تنهض الدلالة من منظور" غريماس" على مبدأ المحايثة الذي يجعلها تنهض على جملة من الأسس الداخلية ، الخاصة والمستقلة عن المعطيات الخارجية .

ولقد كان لإسهامات الدرس اللساني الذي أرسى دعائمه"فرديناند دي سوسير " Ferdinand De Saussure" الدور الكبير والفعّال في تغيير مقولات الفكر الكلاسيكي بإرسائه لجملة من المبادئ نحو مبدأ الاستقلالية أيّ؛ استقلالية الدرس اللّساني عن سائر الأنظمة المعرفية الأخرى.

يتجلي ذلك من خلال معالجة (دي سوسير) اللغة بوصفها نظاما قائمًا بذاتِه ممّا أدّى به ذلك إلى إرساء مبدأ المحايثة الذي تخضع فيه الدلالة لقوانين داخلية خاصة ومستقلة عن المعطيات الخارجية مجشبة بذلك حضور الذات الفاعل إذ لا نلمس لها أثرا أو حضورا إيجابيا ومن جهة ثانية تقصي السياق أو الظروف الخارجية التي تلف إنتاج اللغة بوصفها نسقا.

إنّ اللغة وفق هذا المنظور واقع مستقل وقائم بذاته، لا تحتاج في تحديدها إلى عناصر خارجية عن الوقائع اللسانية المكوّنة من مجموع الرموز والعلاقات المنتظمة والمحددة لوظائفها .

هذا المبدأ يعد أحد الركائز الأساسية الذي تبناه (غريماس) في تحديده لمفهوم الدلالة إذ يعد انعكاسا لمبدأ "دي سوسير" في تأديته مدلول اللسان في مقابل سياق الكلام.

العدد: 05/سبتمبر2012 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص:61 - 78
EISSN: 2602-5973

إذ أنّ مؤلفه (دروس في اللّسانيات العامة) أحدث انعطافا منهجيا وقطيعة ابيستيمولوجية مع الدرس اللّغوي القديم بعد ما انتقد أطروحاته وتصوراته السياقية كي يشكل على إثره علما للسان ويرسخ من خلاله تلك النسقية للوحدات اللّسانية كونّها تؤدي في المجموع إلى علامات دالة حيث إن اللسانيات، لم تكن (قادرة على أن تفرض نموذجها إلاّ بعد أن راجعت مفاهيمها وأسسها الابستيمولوجية، إذ تخلصت من العلوم التي كانت خاضعة لها (التاريخ، البيولوجيا، علم الأديان، الأنثولوجيا) ،وابتعدت عن الطابع المعياري لتؤسّس نفسها بصفتها علما وصفيا، مستقلا وعاما) [8] ذا منهج علمي دقيق وأدوات إجرائية فعّالة.

ذلك أن الهدف الذي كان يسعى إليه (دي سوسير) هو التأكيد على مقولة النسق المغلق للسان ومن ثمّ، التأسيس لحقل معرفي جديد مستقل عن كل العلوم الأخرى متمثلا في اللسانيات، إذ إنّ (اللسانيات هي الوحيدة والحقيقية لموضوع اللّسان وهي مدروسة لذاتها ومن أجل ذاتها "[9] . بما أن اللّغة غير متجانسة بحكم أنها تنهض على مبدأ الشراكة بين جملة من الحقول المعرفية المتعددة (فيزيائية ، فيزيولوجية ،نفسية)فإن اللّسان في نظر" دي سوسير "هو الموضوع المباشر والأنسب والمفضل لعلم اللسانيات بوصفه وحدة منسجمة تختصر كل تغيرات الكلام ولا تتأثر بما يتعلق بالأفراد من تنوعات في الأفكار والأهواء .

من هذا المنطلق، أضحت اللّغة La language تتعارض مع اللسان La langue بوصفه مبدأ قابلا للتصنيف ،وهو ما قاد ب"دي سوسير"إلى بناء متصورات جديدة على شكل سلسلة من الثنائيات المتعارضة تأتي في مقدمتها ثنائية لسان/ كلام langue/ parole باعتبار هذا الثاني أداء فرديا خالصا وقولا خاصّا ينأى عن الثبات الذي يحوّله إلى نسقٍ مغلق .

ذلك أن اللّسان اجتماعي خالٍ من أيّ دورٍ فردي فهو يستوعب ما هو جوهري ويسعى من خلال معايير ثابتة إلى المحافظة على منطقه المحايث، وهكذا فاللسان شكل عكس الكلام الذي ينهض على دور فردّي فعال يستوعبُ كل ما هو عارض ويسعى إلى الدينامية وهو ما نفى عنه صفة العرفية نقيض اللسان الذي ينهض على العرف والمواضعة وعليه ،فالكلام مادة .

إنّ التقابل الذي وضعه (دي سوسير) بين اللّغة / لّسان ، لسان / كلام لا يعني أن نفهم من خلاله أنّ هذه الوحدات أجنبية عن بعضها البعض، بل إنّ كلّ من اللّسان والكلام يؤدون ظاهرة اللّغة فبالنسبة لـ "سوسير"(لا يلتبسُ اللسان باللّغة : اللّسان لا يمثل إلاّ قسما مكملا ومهما وهذا مؤكد)[10] وكذلك بالنسبة للكلام حيث إنّ(اللّسان والكلام هما العنصران المكوّنان للّغة ،باعتبارها جمعا لكل التجليات . الفيزيائية والنفسية . التي تساهم في النشاط اللغوي).[11]إنّ اللّسان بوصفه الحقل الجوهري لعلم اللسانيات والعنصر المكوّن للعملية اللّغوية والمهيكل لنشاطها والمنظم للكلام الفردي فإنه القسم الذي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع لذلك نجده يترفع عن التعدّد بهدف المحافظة على منطقه الداخلي ومبدئه المحايث لإقصاء البعد الثانوي أو المرجعي ومن ثمّ ، فإنه ينفلت من أيّة محاولة إبداع فردي ليصبح موضوع اللسانيات هو اللسان بوصفه(نسقا من القواعد المجردة الموجودة في الذهن بالقوة) [12]فهو فقط له بنية كونه الكل الذي يتكوّن من أجزاء مترابطة ترابطا غير مستقل.

يعرّف (دي سوسير) اللّسان بأنّه (نسق من العلامات ،دال على أفكار ،ولذلك فهو يشبه الكتابة ،أبجدية الصم والبكم ، أشكال اللياقة ، الإشارات الحربية إلخ ، اللسان ببساطة الأكثر أهمية في هذه العلامات) انطلاقا من هذا المعطى، ندرك أن اللسان نسق سيميائي دال على أفكار، يشترك مع أنساق أخرى في هذه السمة إلاّ أنّ اللسان أهمها كونه ينفرد بطابع استقلالي ويرتهن لنظام تعاقدي اعتباطي بين وحدات الدال والمدلول (إنه نسق من العلامات حيث لا تتجلى الأهمية إلاّ في الوحدة بين المعنى والصورة الأكوستيكية وحيث الطابع النفسي لطرفي العلامة)[13] وفق هذا المعطى، يعد اللسان بنية صورية تجتمع ضمنها طرفا العلامة signe : الدال والمدلول بوصفه نسقا ثابتا يؤديه فعل الكلام الفردي .

إن العلامة اللسانية لا تجمع شيئا باسم ،وإنّما تجمع مفهوما le concepe مدلول singnifié ،صورة ذهنية) بصورة أكوستيكية image acoustique (الدال ، التصور أو الأثر النفسي الذي يتركه الصوت فينا وليس الجانب المادي (الصوت المسموع) ،(فالمدلول عبارة عن فعل شعوري ،نفسي ومجرد ، والدال هو البصمة النفسية للصوت المادي ، ولا يمكن تصور وجود علامة لسانية إلا باجتماع هذين الطرفين.[14]

العلامة اللسانية signe linguistique

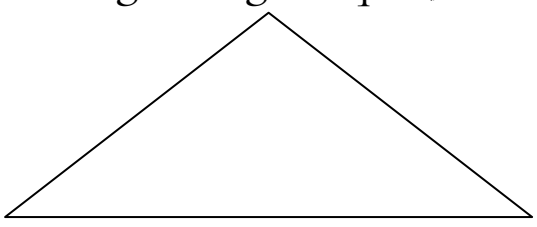

دال (صورة سمعية) signifiant

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

إن الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول يرتكز أساسا على مبدأ الاعتباطية « principe d'arbitraire » لأن العلاقة التي تجمع بينهما لا تقوم على المناسبة والمشابهة انطلاقا من أن (الدوال لا تحيل على مدلولاتها بموجب اقتضاءات أو ضرورات منطقية، وإنّما على وفق العادة الاجتماعية، أي انطلاقا من اتفاقات وتعاقدات الجماعات اللسانية) 15 ولعلها العلّة التي تبرّر التصنيف الذي ما يز من خلاله (دي سوسير) الدراسة التاريخية التطوّرية (Diachronique) التي تقارب اللّغة من خلال علاقتها بالعناصر الخارجية التي تؤدي دورا في بناء نسقها وفي تطورها وبين الدراسة التزامنية (Synchronique) (فاللسانيات الداخلية هي تلك التي تتمحور حول اللسان كجهاز عضوي وكنسق وبذلك تكتسي أهمية قصوى للباحث اللساني (...) اللسانيات الخارجية تعمد إلى تجميع الوقائع وعدها وتجميع التفاصيل والجزئيات الأنتروبولوجية والحضارية والسياسية والمؤسساتية التي توضح جوانب لسانية) 16 بغية الاهتمام بالعلاقات التي تربط العلامات اللسانية فيما بينها ضمن نظام يؤسس للنسق المحايث المستقل والمغلق للسان أيّ؛ دراسة اللسان لذاته ولأجل ذاته في آنية مقصية للسياق بكل أنواعه واستبعاد أي دور فاعل للذات .

اعتمد " دي سوسير" إذن الدراسة التزامنية كونها دراسة وصفية ومحايثة (Immanance) تمكن الدارس من مقاربة وفحص العناصر الداخلية للغة واكتشاف بنيتها الثابتة مهملا الدور الذي يحدثه العامل الزمني في اللّغة من تحولات .

إن التصور الذي قدمه "دي سوسير" للعلامة بوصفها مادة للسان يهدف إلى الاهتمام بالعلاقات التي تجمع العلامات اللسانية فيما بينها فقط ضمن نضام يزيح أيّ مرجعية لغوية كي يؤسس للنسق الخالص، المستقل والمغلق للسان أي؛ دراسة اللسان لذاته ولأجل ذاته تعّد محددا من محدّدات التأصيل التي انطلق منها (غريماس) لتشييد أنظمة الدلالة الذي يعتمد في الأساس على المفهوم النسقي والمحايث للغة .

– مبدأ الاختلاف:

يعدُّ مفهوم القيمة اللسانية Valeur linguistique أحد المفاهيم والمرجعيات الأساسية المستثمرة في النظرية السيميائية السردية لدى"غريماس"شأنها شأن الأصول اللّسانية الغلوسيماتيكية، التوليدية التحويلية والأصول الشكلانية المتمثلة حول الحكاية الشعبية ...إلخ ،وغيرها من محددات التأصيل الأخرى .

يرجع مفهوم القيمة في مجال الدراسات اللسانية والسيميائية إلى(دي سوسير) الذي أدرج في سياق حديثه عن موضوع اللسانيات المتمثل في اللسان la langue مفهوم القيمة اللسانية وقد اعتبر (أن اللسان نسق من القيم الخالصة)17ينهض أساسا على العلاقات الاختلافية 18 والتعارضية على المستوى الصوتي والدلالي ، وأنّ كل عناصر النسق تعدّ عناصر متلازمة ومتضامنة وأن قيمة كل عنصر لا تتحدد إلا في علاقتها الاختلافية مع العناصر الأخرى.

إنّ الكلمة من منظور"دي سوسير" لا يمكن أن تلمس معناها إلاّ من خلال ما يحيط بها من كلمات أخرى ضمن تصوّر شامل هو النسق **le systèm** الذي يكسبها بالإضافة إلى دلالتها الذاتية قيمتها الخالصة 19 وعليه، فإنّ قيمة الكلمة تكمن أساسا في مبدأ العلاقات القائم على التماثل والاختلاف مع الكلمات الأخرى، لأن الكلمة ليس لها معنى في ذاتها إذا ما نظر إليها معزولة ضمن نسقٍ معيّن (إذ لا قيمة للعلامة إلا من خلال مبدأ الاختلاف ، لأن اختلاف العلامات هو وحده المعنى) 20هذا، فإن مبدأ القيمة يطرح مسألة المعنى الذي لا يتحقق إلاّ من خلال العلاقات التقابلية على مستوى البنية الأولية للدلالة ،وقد استثمر (غريماس) مفهوم القيمة من(دي سوسير) لبلورة المفاهيم الأساسية في البناء النظري خاصة مفهوم البنية الأولية للدلالة .

حدّد (غريماس) البنية بوصفها (مكوّنة من عنصرين وبينهما علاقة) 21 س 1/ س2 وهذا يعني أنّ عنصرا واحدا لا يمكن أن يحمل معنى في ذاته ،كما أنّ العلاقة تعدُّ شرطا أساسيا لحضور المعنى.

يكون تنميط هذه العلاقة على مستويين لإمكانية استيعاب العنصرين في كلتيهما:

1- علاقة الوصل في حالة ما إذا كان بينهما قاسم مشترك .
2- علاقة الفصل في حالة ما إذا كانا مختلفين .

توضح هذه المستويات طبيعة العلاقة المزدوجة "الاتصالية والانفصالية " وتقوم على تصور مفاده أنّ أي " لكسيم " « Léxéme » لا يمكن أن يحمل دلالة ما إلاّ من خلال علاقته الاختلافية مع العنصر الآخر وذلك من خلال الوقوق عند الاختلافات الآتية نحو :

إنساني / حيواني

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

طبيعي / ثقافي
مذكر / مؤنث
أبيض / أسود

لا يمكن بخصوص هذه الأمثلة إدراك دلالة أيّ لكسيم من اللكسيمات (إنساني / طبيعي/ مذكر / أبيض) إلاّ من خلال العلاقة الاختلافية مع اللكسيمات الأخرى (حيواني / ثقافي / مؤنث ، أسود) داخل بنية .

بما أن نسق العلامات اللسانية يقوم على مبدأ القيمة " Valeur "، فإنّه (لا يمكن تحديد العلامة انطلاقا من تجسيدها المادي ، بل من خلال انتظامها داخل النسق ، أي من خلال العلاقات الاختلافية والتعارضية المتبادلة بينها وبين باقي العلامات داخ النسق اللساني)22 وهو ما يدل على أن الدلالة تلتمسُ على مستوى البنية من منظور اختلافي أكثر ممّا يجب البحث عنها على مستوى الوحدة المفردة.

-المشروع البنيوي الأنثروبولوجي في سيميائيات غريماس:

إن الحقل الأركيولوجي الذي أصل لبنية المربع السيميائي ليس حكرا على الدرس اللساني المعاصر فقط بل إن الحقل الأنثروبولوجي شكل منطلقا ساهم في رسم معالم السيميائيات المحايثة حيث إن نسق القرابة بوصفه نظاما رمزيا مثله مثل نسق اللغة يحتكم لنظم و يرتكز على قواعد.

تعدّ بنوية (كلود ليفي ستروس) فضاء معرفيا ومرتكزا أساسيا ومكوّنا فاعلا ساهم في رسم معالم النظرية السيميائية السردية وتشييد أنظمتها، حيث إنّ سيميائيات (غريماس) السردية تقر بمصدرين أساسيين إلى جانب مصادر أخرى،كما يذهب لذلك ((جون بييتيدو كوكوردا)) J – P Cocorda(من جهة أعمال بروب حول الحكاية الروسية ، ومن جهة أخرى الباحث ليفي ستراوس حول الأسطورة فقد احتفظت من الثاني بفكرة المكون الدلالي Composante Sémantique)23 .

إذا كان فضل(فلاديمير بروب) يكمن في تمكين البحث السيميائي السردي من التعرّف على تركيبة علم التركيب للنحو السيميائي السردي العميق فإن فضل (ستروس) يكمن في تبسيط ترسانة المفاهيم التي قدّمها (بروب) إزاء المحكي الخرافي وتفصيلها وتعميق منهجيته من جهة ومن جهة ثانية السعي وراء تحقيق منظومة لنسق الخطاب الأسطوري ذلك أن فضل التعريف (بالتركيبة الدلالية لهذا النحو السيميائي السردي العميق يرجع أساسا إلى جهود(ليفي ستروس) وأبحاثه حول الأسطورة ،حيث إنها تمثل الجزء الأكثر صعوبة وتعقيدا) [24]مقارنة بما أداه (فلاديمير بروب).

فبعد اطلاع عميق وقراءةٍ متفحصّة للتصور البنيوي الذي قدمّه (كلود ليفي ستروس) لخطاب الأسطورة توصّل (غريماس) إلى أنّ التأويل المقترح من قبل(ستروس) لأسطورة (أوديب Oedipe) أتاحت للمقاربة السيميائية (التعرف في أعماق الخطاب على بنيات سيميائية تمتلك علما تركيبيا Syntaxe ودلاليات أساسية وفي الوقت نفسه يكون هذا التأويل قد أهمل خصوصية الخطاب الأسطوري ذلك أن بنيات سيميائية مشابهة تسير كل الخطابات)25 وهو ما يفضي إلى توخي أنساق خطابات مختلفة ومتعددة للدراسة والتحليل فضلا عن الأسطورة .

تعتبر الأنثروبولوجيا داخل حقل العلوم الإنسانية العلم الأكثر تمثيلا للمنهج البنيوي، خاصة مع أعمال (ليفي ستروس) الذي درس ميتولوجيا المجتمعات الهندو . أمريكية ليقوم بعدها بعمل تحليلي بنيوي متميّز للنصوص الأسطورية يهدف للبحث عن الوحدة والثبات والائتلاف وسط التعدد والتغير والاختلاف وتباين الظواهر وتغيرها، لأن اكتشاف البنية العقلية المنطقية الثابتة للظاهرة من منظور (كلود ليفي ستروس) 26سهّل مهمة إدراكها ولعلّها العلة التي تبرّر سبب سعيه نحو تقديم عقلانية بنيوية تهدف إلى(معرفة الصيّغ العقلية الكلية الكامنة وراء الظواهر المتعاقبة جاعلا كل جهده منصبا على العمل من أجل اكتشاف البنى العقلية)[27] لخطاب الأسطورة.

إنّ الفكر الأسطوري عند(ليفي ستروس) لا يمثل فكرا (سابقا على المنطق Prélogique) ولكنه يعد فكرا منطقيا [28]في مستوى معيّن هو المستوى المحسوس، أي أنه فكر تصنيفي Classificatrice يستخدم مقولات تجريدية مثل : (النيء والمطبوخ Cru et cuit) (الطازج والفاسد frais et pourri) إذن هناك فكر وهناك منطق محايثان للطبيعة وللحياة معا.

سعت البنيوية إذا، إلى إرساء قاعدة عامة تتمثل في أنه ليس هناك فكر واحد ثابت فالفكر البدائي . المفترض . يوجد لدى الجميع ويدخل في علاقات تناظر وتماثل مع ما يسمى بالفكر المتمدن أو المتحضر .

العدد: 05/سبتمبر2012 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص:61 - 78
EISSN: 2602-5973

ويمتاز منهج (ليفي ستراوس) بخاصيتين أساسيتين هما :

1- البحث عن الثابت العقلي.

2- الاعتماد على النموذج الواحد.

يحتفظ (ستراوس)[29] بثلاثة مكونات أساسية لكلّ وصفٍ يتعلق بالأسطورة: الهيكل ، الرسالة، الشفرة.

الهيكل باعتباره مكونا من مجموعةٍ غير محددة من الخصائص الشكلية ذات النظام التركيبي/ والدلالي ، ويتحدد من منظور (غريماس) ب (الوضع البنيوي للأسطورة باعتبارها سردًا)[30] .

مجموع هذه الخصائص الشكلية التي تتقاسمها المحكيات الأسطورية تعطينا لمحة أوليّة عن نموذج السرد الذي بإمكانه أن يصف الأسطورة كجنس وكمضمون متميّز.

هذا الهيكل "المنطقي" يتمفصل على نسق تعارض من غط : قبل / بعد والذي يضع علاقة ديناميكية متبادلة بين المضامين والأشكال نحو ما توصل إليه (غريماس): [31]

قبل مضمون مقلوب

بعد مضمون موضوع

يضاف إلى هذين المحتويين الموضعيين [32] « topiques » محتويان متعالقان وهما حسب (غريماس) يوجدان فيما بينهما من حيث المبدأ على نفس علاقة التحويل بالنسبة للمحتويين الموضعيين عن طريق هذه العلاقات . والتي يمكن أن تكون علاقة تعارض أو تكافؤ أو تجانس . وعن طريق تحولاتهما يتمظهر الهيكل الأسطوري باعتباره نظاما تركيبيا وشبكة دلالية متفقة تماما مع تعدد الشفرات التي تعبر النسيج الأسطوري والتي لا تتضح إلا باستعمال القاموس الأنتو . ثقافي المحيط به.

يقتضي فك الشفرات عزل مقارنة مختلف المستويات التي تتبلور فيها الأسطورة : جغرافي ،اقتصادي ،اجتماعي ،كوني ويتجلى كل واحد من هذه المستويات الرمزية الخاصة به كتحول للبنية المنطقية الكامنة المشتركة بين كل المستويات؛ كما يقتضي مقارنة الصيغ المختلفة والبحث عن تأويلات الاختلافات التي تظهر فيما بينها.

تحيل الشفرة من جهة على السياق الثقافي للمجتمع الأم ، ومن جهة أخرى على القاموس الأسطوري المتفق عليه ومن هنا سنتحدث عن الشفرة الغذائية السائدة في إحدى المجتمعات المحلية التي استعارها (غريماس) من (ليفي ستروس) كمثال ليعطي الإيضاح المتشجر للشفرة الغذائية المتضمنة:[33] (النيئ / المطبوخ).

أمّا بالنسبة للرسالة أي الدلالة الخاصة التي تنبثق من الأسطورة نتيجة للتحليل، فهي تنتج عن مقابلة المكونات السردية والخطابية التي تشكل العمود الفقري للمحكي الأسطوري .

الهدف من التنظيم المنطقي للأساطير [34]، تنظيما سرديا . خطابيا هو تمثيل الفكر الأسطوري النسقي والذي بعيدا عن كونه أوليّا أو بدائيا يقربنا أكثر ممّا يبعدنا عن أشكال التفكير التي تبدو غريبة عن تفكيرنا ،وبالتالي لا يمكن وصفها كفكر قبل منطقي بل إنّها فكر منطقي ولتحقيق هذه المهمة بشكل صحيح يؤكد (ليفي ستروس) بأن الأنثربولوجي يستدعي اللسانيات باعتبارها علما رائدا في حقل العلوم الإنسانية إضافة إلى أنه يعتبر الأسطورة ظاهرة لغوية تقوم على أمرين مختلفين ومتكاملين في الوقت نفسه[35]:

أولا : الترتيب الأسطوري الذي يتجاوز وحدات الخطاب (ألفاظ ،معجمية ،قضايا ،جمل) ليسمح بإبراز البنية الأسطورية العميقة بنسقها التراتبيّ للشفرات وبقواعد تحوّلها.

ثانيا: إبراز الترتيب السردي الواقع على مستوى التعبير اللغوي والذي يضبط نشاط السرد بالتأشير على معالِم الفضائية والزمنية والتلفظية.

إنّ القرابة بوصفها ظاهرة هي نظام رمزي مثلها مثل اللغة والثقافة تحتكم لنظم وترتكز على قواعد، وبما أنها كذلك فهي نسق يخضع لنظام داخلي مثل نسق اللسان الذي قارنه(ستروس) بالقرابة بعد أن استعاره . اللسان . من منهج اللسانيات للبحث عن الأبنية اللّغوية الثابتة وسط التغير الظاهر في اللغات المنفردة ولإضفاء الصبغة العلمية التي امتازت بها اللسانيات على البحث الأنثروبولوجي بغية الكشف عن المتشابهات والمتناقضات للظفر بالعوامل الثابتة المؤدية للتعددية الظاهرة في المجتمعات البشرية ورصدها.

ذلك أنّ ما يميز منهج (ليفي ستروس) هو نظام الثنائية الفكرية الذي من خلاله استطاع أن يخلُص إلى البنى الأولية للقرابة وهو المنطلق الذي توسّل به (غريماس) إذ أخذ منه هذه العلاقات الثنائية . سواء في شكل تناقض ،تعارض أو تضاد . واستثمرها في بناء أنموذجه المتمثل في المربع السيميائي والذي يشكل البنية الأولية للدلالة عند (غريماس).

قدم(غريماس) في كتابه (في المعنى) تحليلا مفصّلا لأسطورة (البوروro Bororo) مبرزا عبرها الطريقة التي تتوزع بواسطتها المستويات التنظيمية للحكي، فالمضامين العميقة في المستوى الاستبدالي تدرج ما يسميه (ستروس) بـ : "الشفرة" أو "السنن" « Code » والتي يعرفها (غريماس) (كينية شكلية :

أ / متألفة من عدد قليل من المقولات (التصنيفات) السيمية (Sémes).

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

ب / والتي هي في توليفها قادرة على أن تقدم على شكل مقومات معجمية متمظهرة أي سيميمات « Sémemes » التي تسمح بالتعرف على مجموع المضامين المطروحة والتي هي جزء من البعد المنتقى في العالم الأسطوري)[36] نحو ما يجليه المثال الآتي :

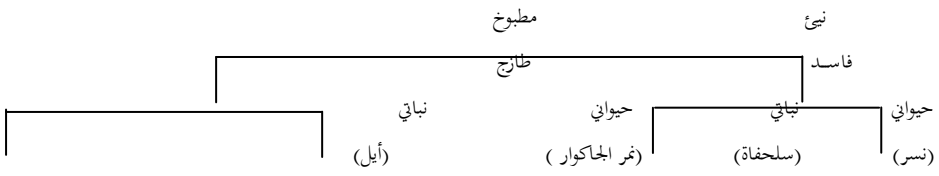

ما يلاحظ أن سنن التصنيفات الغذائية مطروح بواسطة تراتبية تقابلية نحو : (مطبوخ / نيئ) (فاسد / طازج) ، (حيواني / نباتي).

فالسيم يولد سيميمات مثل : "نيئ + طازج + حيواني" أو " نيئ + طازج + نباتي " ويبيّن (ليفي ستروس) أن هذه السيميمات تتكفل بها لكسيمات وفق التطابق التالي :

نيئ + طازج + حيواني ← نمر الجاكوار .
نيئ + طازج + نباتي ← أيل .
نيئ + فاسد + حيواني ← نسر .
نيئ + طازج + نباتي ← سلحفاة .

مجموع هذه اللكسيمات تعمل من جهة،كحامل للسيميمات المنبثقة عن السنن، ومن جهة أخرى تعمل كعوامل actants، والأكثر تمظهرا من هذه اللكسيمات (من خلال ميزاته التصويرية) يحوّل إلى التركيبة الخطابية ويعتبر بذلك غير ملائم للمنطق العميق)[37] لأن الدلالة الأولية للأسطورة لدى (ستروس) تتجلى أساسا في تجاوز التضاد والتوفيق بين التناقضات كونها سيرورة منطقية تهدف إلى الربط بين أقطاب متناقضة.

وهو ذات التصنيف الذي استهل به (غريماس) دراسته للبنية العميقة منطلقا في ذلك من عملية التقطيع إلى وحدات دلالية صغرى وسمها بالسيم « le séme » بوصفه أصغر وحدة دلالية في تموضعه على مستوى المحتوى مستفيدا من الطرح اللساني على مستوى التعبير[38] الذي صنف الظاهرة اللغوية انطلاقا من الفيم محققا توازيا بين مستويي اللّغة، كونه (السيم) أصغر وحدة دلالية به يتألف السيميم كما هو الحال بالنسبة للفيم المكون للفونيم .

وبما أن السيم لا يكتسي دلالته إلا في تمايزه عن غيره من السيمات فإن ذلك يكسبه دلالة علائقية .

إن السيم (Séme) لا معنى له إلا في علاقته الاختلافية مع سيم آخر، هذا المفهوم الذي يمثل النواة التي بنى عليها (غريماس) بنية المربع السيميائي أخذه من (ستروس) الذي استهل تحليله للأساطير من نظامين مختلفين (مجموعات اجتماعية . علاقات سياسية) مثلا، للقبض على أوجه التشابه بين العلاقات النسقية أيّ؛ بلوغ نمط معقد من التماثلات نحو التحليل الثنائي الذي أداه (كلود ليفي ستروس) وهو يقارن بين قواعد الزواج ونظم القرابة الاجتماعية فضلا عن الدراسات التي تبناها إزاء الطقوس الدينية، التنظيم المكاني لقبيلة ما...إلخ (حيث يشكل كل نظام من هذه الأنظمة نسقا ذا وظائف متعلقة بكل مظهر معين، دون أن نبعد هذه الأنظمة . بوصفها تمثيلات رمزية . عن وقائعها الاجتماعية) [39] .

إن مفردة (العم)تطلق على القريب المتمثل في أخ الأب وعلى الصهر (النسيب) وهو أبو الزوج أو الزوجة ، مما يدل على أن الزواج الايجابي والصحيح والأكثر ملائمة بهذا المجتمع هو الزواج والارتباط بابن العم أو بابنة العم .

استنادا إلى ما تقدّم، يمكننا القول بأن نسق القرابة الذي ينهض أساسا على نظام الثنائيات المتقابلة هو المرتكز الذي يرتكز عليه الدرس الأنثروبولوجي لدى (كلود ليفي ستروس) والهدف الذي ينشده.

إلاّ أن ما يجدر الإشارة إليه أن النسق الجامع الذي يحوي ضمنه هذه الثنائيات هو ذات التقابل الذي يصنع علاقة الأول بالثاني ويقر بتبعية الثاني للأول نحو ما يجليه المثال الآتي :

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

أب - ابن

أخ - أخت

زوج + زوجة

خال + ابن أخت

على أن يكون للعنصر الأول دور التحكّم والسلطة على العنصر الثاني، مع تأكيد خصوصية هذا الأنموذج إذ يتعلق بمجتمع « wennebago » الذي مثل (ليفي ستروس) لعلاقات القرابة فيه بالمخطط الآتي : [40]

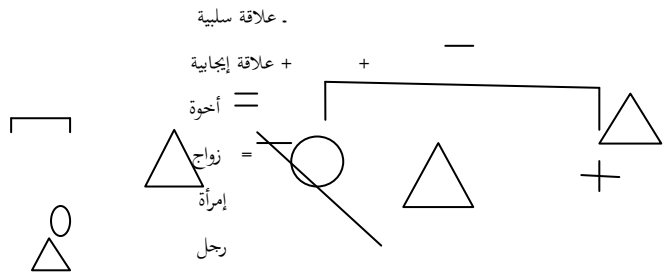

فضلا عن ذلك، توسّل (ستروس) في مقاربته الإجرائية وهو يدرس ميتولوجيا المجتمعات الهندو . أمريكية بحثا عن الإنزياح التفاضلي « écart différentiel » الدال الذي يتيح له مقاربة المنطق الملموس المتوفر في الخطابات، كما يتيح له مساءلة هذا المنطق من أجل ضبط المنطق المجرد والضمني بـ (تقابلات كيفية "جاف / رطب ، متصل / منفصل" وصورية "فارغ / ممتلئ ،ظرف / مظروف" ومكانية " أعلى / أسفل ، قريب / بعيد " وزمانية " سريع بطيء "،وكونية " سماء / أرض " ،وبلاغية " حقيقية / مجاز")[41] ،بمجموع هذه التقابلات والمتناقضات يفرز عنها أنساق دلالية مغايرة ومتباينة نحو وظائف الحيوانات:

نسر / بومة .

(نهار) / (ليل) .

من ناحية، حيوانات تختلف عن بعضها بعضا (من حيث انتماؤها إلى فصائل مختلفة لكل منها مظهرها الطبيعي المختلف وغط حياتها الخاص بها) . وهناك من ناحية أخرى رجال يختلفون عن بعضهم بعضا (من حيث انتماؤهم إلى أجزاءٍ متباينة من أجزاء المجتمع ،يحتل كل منها مكانا خاصا في البنية الاجتماعية) والشبهُ الذي تفترضه هذه التمثيلات التي يسمونها تمثيلات طوطمية إنما هو من هذين النظامين من نظم الاختلاف)[42] ،وهو المنطق الذي ميّز بحوث (غريماس) والفكرة التي طغت على عمله الدلالي، حيث إن المتمعن في المقاربة الإجرائية في مجال الانتروبولوجيا البنيوية التي أدّاها (ليفي ستروس) وبين التصور الذي طرحه (غريماس) إثر تشييده لأنظمةٍ الدلالة يقف عند نقاط التماثل والاختلاف التي تجمع بينهما.

فـ (ستروس) بحث عن الثابت اللا متغير للقبض على الأبنية الكامنة وراء الظواهر متوسّلا في ذلك بنظام الثنائيات المتقابلة الذي يمثل الإرهاص الذي توخاه (غريماس) في تقديمه المورفولوجي للبنية الأولية للدلالة انطلاقا من أن المعنى ينهض أساسا على الاختلاف لأن الهدف الذي سعت الأنثروبولوجيا إلى بلوغه تمثل أساسا في البحث عن (البنى الكامنة وراء الظواهر ،تلك البنى ذات الطبيعة العقلية والنسقية) [43].

وعليه، وبعد الاطلاع على مجموع الانتقادات التي قدمها (ليفي ستروس) لمورفولوجيا (فلاديمير بروب) ،وقراءة (غريماس) لمشروعيهما نخلُص إلى أن هناك مسارًا رابطا يجمع بين هذه المشاريع على الرغم من تباينها، بحيث يبدو من المستحيل مقاربة المؤولات التصورية للسيميائيات السردية لدى (غريماس)وتقصي أصولها دون العودة والوقوف عند نتائج البحث الفولوكلوري عند (بروب) والبحث الأنثروبولوجي البنيوي لدى (كلود ليفي ستروس).

استنادا إلى ما تقدم طرحه، نلاحظ بأن محور اهتمام (ليفي ستروس) تمثل في الدراسة البنيوية التي طبقها على المحكيات الأسطورية بهدف استنباط منطق التفكير الأسطوري[44] بحيث نلفيه يضحي بالمظهر السردي لصالح المظهر الخطابي، موضع تمركز العلاقات التي ترتبط بالقواعد المنطقية والدلالات الرمزية.

من المؤكد أن (ليفي ستروس) يبقى الأقرب من التيارات البنيوية وما بعد البنيوية المعاصرة، والأكثر سفسطائية لأن أعماله لم يقتصر تأثيرها على الأنثربولوجيا وحسب وإنما تعدّاها إلى ميادين وحقول معرفية أخرى : لسانية ،اجتماعية وسيميائية ...الخ متسولا في طرح تصوره للأسطورة بلغة واصفة مناسبة جعلته يتقاطع مع السيميائيات النصية ولعلها العلة

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

وراء دفع (جوليا كريستيفا) إلى اعتبار الأنثروبولوجيا سيميائيات (إنّ الأنثروبولوجيا البنيوية هي سيميائيات ما دام أنها تعتبر الظواهر الأنثروبولوجية وتطبق الطريقة الوصفية اللسانية عليها ،كلغات)[45] دون إغفال ثراء الثنائية المفاهيمية طبيعة / ثقافة ودورها الريادي في نشأة جهاز البنية الأولية للدلالة والتي وضفها (غريماس) في رسم معالم الدرس الدلالي.

بالنسبة (لليفي ستروس) [46]، سواء تعلق الأمر باللسانيات التي يدّعي الانتساب إليها علنًا والتي يستعير منها الأدوات والمنهج، أو تعلق الأمر بالسيميائيات التي يتموقع ضمنها على المستوى النظري والمنهجي والتي يتنافس معها باعتباره يتخذ نفس الأوضاع النصية، فلابد من القول إن هذه العناصر كلها لا يمكنها أن تتموضع إلا داخل مقاربة أنثربولوجية عامة تجمع مناهج وتخصصات في نوع من المعرفة المثلى للإنسان.

1- أولية الدراسة الوظيفية للصوت اللغوي في الدرس السميائي السردي:

أسهمت المرتكزات اللسانيّة للبحث السيميائي في تضايق المفاهيم اللسانية والسيميائية، فاستثمر "غريماس" بعضا منها إثر تشييده لأنظمة الدّلالة.

فإذا كانت اللسانيات الغلوسيمائية بريادة (لويس يلمسليف) قد طوّرت الجوانب الأكثر شكلّية في تصوّرات (دي سوسير) وإذا كان علم الدّلالة البنوي مع (غريماس) قد عمّق هذا المنحى الشكلاني بفحص بنيات الدّلالة في أقصى درجات التجزيء والتجريد، فقد اهتمّ أصحاب "مدرسة براغ " بما تضمّنته تصوّرات (دي سوسير) من جوانب تواصلية واجتماعية، فرغم أنّهم لم يتخلّوا عن المقاربة البنوية كانوا الأكثر قربا من الوظيفة التّواصليّة [47] لنسق اللغة ومن طابعها الاجتماعي والدينامي حيث أقرّت هذه المدرسة بضرورة معالجة اللغة باعتبارها نسقا كمنظومة وظيفية ذات غاية محدّدة والمتعلّقة بالتّواصل بين البشر.

اهتمّ لسانيو (حلقة براغcercle de prague) بالجوانب الفونولوجيّة الجانب [48] الصّوتيphonologique) للتواصل اللغوي، فقد درس (بودوان دي كورتناي) الفونيمات (phonémes) بصفتها أصغر الوحدات اللغويّة، ورأى أنّ ما يمايز بينها هو مظهرها الوظيفي.

وعليه، لاغرو أن نرجع نشأة اللسانيات الوظيفية لأعمال حلقة "براغ" و ليس لديسوسير فقط الذين عالجو نسق اللغة بوصفها منظومة وظيفية أو نسقا وظيفيا محددة بغاية التواصل بين البشر.

أمّا (نيكولاي تروبتسكوي) [49] فقد اعتبر الفونيم مفهوما وظيفيّا بالأساس، وقد عكست الأطروحات التي قدّمتها حلقة براغ للمؤتمر العالمي للسانيات في (لاهاي) سنة 1929 هذه المتصوّرات الوظيفيّة، ومن ذلك دعوتهم إلى فحص اللغة حسب علاقتها بالواقع الخارج –لساني للتمييز بين اللغة التّواصلية واللغة الشعريّةوهي الأطروحة التي قام (ياكبسون) ببلورتها.

إذ يعود له الفضل في تأسيس فونولوجيا "براغ"، إذ يذهب (جورج مونان) إلى القول أنّه (لولا ديناميكيّة (ياكبسون) الفعّالة، لما استطاعت الفونولوجيا أن تحقّق ذلك الانتصار العظيم في لاهاي أبدا، وربما كانت انتظرت طويلا لتفرض تعسها خارج براغ)[50] حيث إنّ ما يميّز (ياكبسون) عن باقي الفونولوجيين هو طرحه (إجراء تحليليا خاص بالدّراسة الوظيفيّة للصّوت اللغوي، منطلقا من تحديده وسنّه للقوانين العامة لبنية النظام الصوتي لكلّ اللغات البشريّة)[51].

فحسب متصوّر(ياكبسون) يمكن صياغة قانون عام محتواه أنّ التمييزات الصّوتيّة الأوّليّة موجودة في كلّ اللغات السائدة وهو المتصوّر الذي يشبه كثيرا المتصوّر الذي يشبه كثيرا المتصور الذي توسّل به (غريماس) لرسم معالم النّظريّة السيميائيّة السّرديّة.

فإذا كانت الغاية التي يصبوا إليها(ياكبسون) تتمثل في وضع نظريّة فونولوجيّة مبنيّة على تصميم ثنائي "تقابلي" للعلامات المميّزة يكون هدفها هو الوصول إلى الكلّيات UNIVERSAUX الفونولوجيّة للغة، فإنّ (غريماس) إثر تشييده لأنظمة الدّلالة انطلق من سن قانون عام ونحو كوني واعتبره المنطق الذي تحتكم إليه وترتكز عليه جميع الأنساق الدّالة خاصة الأنساق السّرديّة.

تهتم هذه النّظريّة الفونولوجيّة، على عكس دراسة (دي سوسير) بالأفعال التعاقبيةلأن (مفهوم اللغة كنسق وظيفي حسب ياكبسون يجب أن يتجسّد أيضا في دراسة الحالات اللغويّة السابقة ويتعلّق الأمر بإعادة بنائها واستخلاص تطوّرها) [52] وعليه، فإنّ فإنّ الدّراسة التزامنية مهما كانت أساسية تبقى وحدها غير قادرة على وصف معطى لغويّا كبيرا

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

ومعقّدا، إذ لا يمكن إغفال الدور العظيم الذي يوديه مفهوم التّطور في الكشف عن جوهر اللغة. وعليه، لا غروا أن نرجع نشأة اللسانيّات الوظيفيّة لأعمال "حلقة براغ" وليس ل"دي سوسير" فقط الذين عالجوا نسق اللغة كمنظومة وظيفيّة أو نسق وظيفي محدّدة بغاية التّواصل أو تحقيق غاية التّواصل بين البشر.

4-2-النزعة الثنائيّة لدى "ياكبسون":

ينطلق (ياكبسون) من فرضيّة مفادها أن (الخصائص التّمييزيّة متشابهة في جميع اللغات ولا تتباين إلاّ في الطّريقة التي يتمّ بها تركيب الصّفات إلى فونيمات)[53] يستهل (ياكبسون) دراسته إذًا من تقديم وصف سمعي للأصوات مفضّلا المظهر الأكوستيكي خلافا (لآندري مارتيني) الذي ينطلق من الوصف الفيزيولوجي للأصوات، معتمدا على جهاز النّطق كأساس في تحديد الصفات التمييزيّة للفونيمات.

يمكن صياغة المسلّمة 3: على صعيد المحايثة المستثر في صعيد التّحليّ اللساني، أين يتمّ تنظيم الوحدات المركّبة المشكّلة للغة. وتساعد علاقة التّماثل على تمثيل تنظيمها: فترتبط الفونيمات (وحدات التّعبير المركّبة.) بالفيمات (الوحدات الأوليّة للتعبير) ارتباط السيميمات (وحدات المضمون المركّبة) بالسيمات (وحدات المضمون الأوّليّة).

كما نسبت المنهجيّة الثنائية إلى (رومان ياكبسون) الذي أقرّ وجود تقابل ثنائي بين علاقتين1: علاقة التناقض وعلاقة التّضاد أو علاقة الحضور/ الغياب• ومن هذين التقابلين انطلقت السيميائيات السّرديّة بريادة(غريماس) لوضع البنية الأوّليّة للدلالة مقترحة بذلك أربع علاقات تحلّت في المربّع السيميائي وقد حدّد المعجم هذه الثنائيّة باعتبارها علاقة بين حدّين.

استنادا إلى ما تمّ طرحه، تبيّن لنا أن مبادئ التّحليل الفونولوجي تنطلق من الإطار المنهجي نفسه الذي تنطلق منه مبادئ التّحليل السيمي لدى (غريماس)، فكما أنّ الدّرس الفونولوجي يسعى إلى تحليل(الفونيمات بتحديد خصائصها المميّزة traits distinctifs التي هي خصائص صوتيّة تميز الفونيم وتقابله سلبيا مع بقية الفونيمات، فكذلك الشأن مع التّحليل السيمي ينطلق في دراسته للوحدات الدّالة من تحديد وحداتها الدّلاليّة الصّغرى التي هي سمات دلاليّة مميّزة Sémes)[54] لا تكتسب دلالتها إلّا عبر منطق التّباين والاختلاف وهو المرتكز الذي أسّس عليه (غريماس) نظريّته في السّرد انطلاقا من أنّ المعنى هو نتاج الاختلافات وهو ذات المبدأ الذي راهن عليه (دي سوسير) من قبل عند تأسيسه للدّرس اللساني ولمفهوم القيمة اللسانيّة والذي استثمره (غريماس) إثر مقاربته للمسألة الدّلاليّة، إذ نلقيه قد تمثل هدا المبدأ "اللساني" ضمن تصوّر جديد قوامُه (استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى)[55] نّ السيم le sème هو العنصر الدّلالي الأصغر الذي يمثل القاعدة والوحدة الأساسيّة الذي لا يظهر إلّا من جهة علاقته الاختلافيّة مع غيره من العناصر، حيث إنّ وظيفته ترتهن لمبدأ الاختلاف فيكتسي دلالته انطلاقا من تمايزه وتباينه عن غيره من السيمات ممّا يكسبه ذلك طبيعة علائقية، نحو: أبيض وأسود.

إنّ دلالة الأبيض لا يمكن القبض عليها إلّا بمقابلتها بالأسود، وكذلك الأمر مع الحياة عكس الموت، الوجود عكس الغياب.....الخ. لهذا السبب، لا يمكن للسيم (أن يتحقّق إلّا ضمن مجموع وفي إطار بنية عضويةعلائقيّة)[56] .

شكلت أبحاث (ياكبسون) إذا، حول الأنموذج الصوتي مصدر إرهاص ومنطلق أساسي ل(غريماس) حول تصوّره للبنية الأوّلية للدلالة والذي يعود في الأساس إلى التّصوّر الذي قدّمه(دي سوسير)للسان في قوله (في اللسان لا وجود إلّا للاختلافات)[57] حيث تعدّ هذه الثنائيّات المتعارضة البنية الأوّليّة للدّلالة التي مكّنت (غريماس) من بناء نموذجه المتمثل في المربّع السيميائي le carré sémiotique.

3- المربّع السيميائي:

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

إنّ المربع السيميائي هو (تمثيل مرئي [58] لتمفصل منطقي لأي مقولة دلاليّة) وهو البنية الأوّلية للدّلالة كونها العلاقة التي تجمع بين كلمتين على الأقل ضمن مقولة التقابل من نوع: س1/س1 وس2/س2.

حيث تمثل الأولى نوع التّقابل الذي ينبني أساسا على حضور سمة معيّنة أو غيابها وتمثّل الثانية حضور السمات ذاتها ولكن بأشكال مختلفة.

تقترح بنية المربّع السيميائي [59] إذا، كلمتين اثنين س1 وس2 يقيمان فيما بينهما علاقة تقابليّة وبالضبط علاقة تضاد contrariété وعن طريق النّفي بإمكاننا الحصول على مصطلح مناقض contradictoir وانطلاقا من موقع س1 وس2 في المربع، يكون كلّ منهما في موقع تحت التّضاد subcontraire.

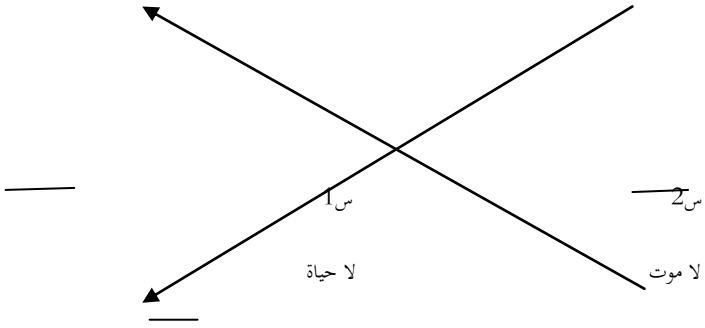

إنّ العلاقات س1/س1 وس2/س2 تتطابق مع تقابلات سلبيّة priative مستثمرة من الأبحاث الفونولوجيّة ل (رومان ياكبسون)، كما أنّ العلاقة بين س1 وس2 ليس لها شكل منطقي ، وانطلاقا من وجهة نظر شاملة –كما ذهب لذلك جوزيف كورتيس [60] يكون (س1وس2) متضادّين إذا كان نفي أحدهما يثبت الآخر والعكس، حتى يكون س1 وس2 متضادين يجب أن كون س2، يستلزم س1وس1 يستلزم س2 وهذه العمليّة المزدوجة تقيم علاقة تكامليّة بين س1 وس2 من جهة بين س1 وس2 من جهة أخرى.

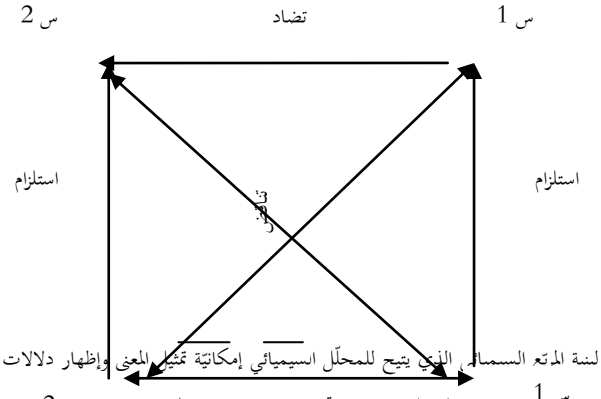

أشار (غريماس) أثناء تطرّقه لبنية المربّع السيميائي الذي يتيح للمحلّل السيميائي إمكانيّة تمثيل المعنى وإظهار دلالات النّص إلى نظام العلاقات التي ينبني عليها والتي تخضع لها الوحدات الدلاليّة لتوليد عا س 1 ندات ا ما تحت تضاد بها به س 2 ، حيث إنّ العلاقة بين (س1/س2) و(س2/س1) هي علاقة تضاد، أمّا العلاقا س2) ت

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

تقوم هذه العلاقة على عمليّة النفي la négation إذ من المستحيل تصوّر السّمتين معًا. أمّا العلاقة الثالثة فهي علاقة الاستلزام بين (س1/س2) و(س1/ س2) التي تنهض على عمليّة

الاثبات l'assertion بحيث يأخذ المربّع السيميائي الشكل الآتي:

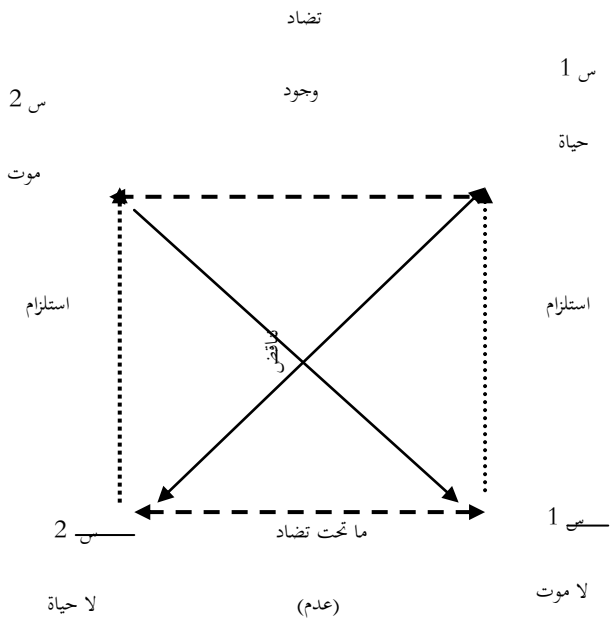

4- الأنموذج الوظائفي الياكبسوني/ الأنموذج العاملي الغريماسي.

على الرغم من أنّ المدرسة الوظيفيّة تأسست على جملة المفاهيم المستقاة من أعمال(دي سوسير) حول علم اللغة إلّا أنّنا نلفيها توجّه اهتمامنا نحو ربط الأصوات بالدّلالة وبالمعنى وهو ما يتوافق مع الهدف الذي تنشده المتمثل أساسًا في سن مجموعة من القوانين الكونيّة التي تنظم البنيات الأوليّة لنسق اللغة بشكل عام.

إنّ فكرة الأنموذج العاملي le modelle actantielle التي طوّرها (غريماس) تعود أساسا إلى المتصوّر الذي قدّمه (ياكبسون) انطلاقا من علاقة العامل المرسل بالعامل المرسل إليه أثناء عمليّة انتقال المرسلة وتبليغها يقوم العامل المرسل إليه/ المتلقّي بترجمتها وبتأويلها.

إنّ اللغة لدى (ياكبسون) عبارة عن جملة من الوظائف المتداخلة تؤدّي فعلا تواصليّا وعليه، نجده يحدّد فاعليّة اللغة ضمن ستة وظائف تؤدّيها ستّة عوامل فاعلة و قد مثّل لذلك

في الخطاطة الآتية: سياق

CONTESCTE

مرسل مرسلة مرسل اليه

Destinataire message Destinateure

اتصال

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

Contacte

سنن

Code

كل عامل من هذه العوامل الست يولد وظيفة لغوية مختلفة :

الوظيفة المرجعية

Fonction Referentielle

الوظيفة الانفعالية الوظيفة الشعرية الوظيفة الافهامية fonction contive

fonction Emotive fonction péotique

الوظيفة الانتباهية

Fonctionphatique

الوظيفة الواصفة

Fonction Métalinguistique

استعار(غريماس) من نموذج التّواصل لدى (ياكبسون) –الذي يوضح العمليّة الكلاميّة ويضبط التّواصل عبر العناصر السّتة الأساس من خلال تحديد كل عنصر منها بوظيفة تواصليّة تختلف عن الوظائف الأخرى – مفهومي المرسل والمرسل إليه اللذان استثمرهما (غريماس) في مسألة التّنافس بين العامل المرسل والعامل المرسل إليه حول الموضوع، محدّدا بذلك صراع الذّات والذات المضادّة حول موضوع القيمة objet de valeur الذي ترغب كل ذات منهما في الظفر به.

ظف إلى ذلك، أنّ التّصوّر الذي طرحه (ياكبسون) أسعف (غريماس) كثيرا إثر رسمه معالم الأنموذج العاملي انطلاقا من علاقة العامل الفاعل بالعامل المرسل إليه في عمليّة تبليغ موضوع القيمة.

إنّ العامل المرسل بالنّسبة ل(غريماس) لا يبلغ المرسل إليه مرسلات لغويّة بل يقوم بدور التّحريك لتحفيز الذّات الفاعلة على أن تكون لها رغبة نحو تحقيق الموضوع المرغوب فيه إلى المستفيد وهو المرسل إليه نحو ما يجليه المخطط الآتي:

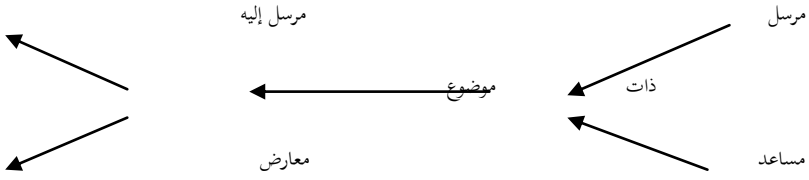

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

من ثم نخلص إلى القول، أنّ الأنموذج الذي طرحه (ياكبسون) لعمليّة التّواصل اللغوي هو المرتكز الأولي واللّبنة الأساسيّة لتركيب عناصر الأنموذج العاملي بعوامله الستّة أو بأزواجه الثلاث الذي انتقل بالدّراسة من التّحليل اللساني إلى النّسق الأدبي.

إنّ المرسلة باعتبارها قولا لغويّا (تتّجه عادة بحركة سريعة من باعثها إلى متلقيها وغايتها هي نقل الفكرة، وإذا ما فهم المتلقي ذلك انتهى دور المقولة عندئذ، ولكن في حالة القول الأدبي تنحرف الرّسالة عن خطّها المستقيم، وتعكس توجّه حركتها ويتحوّل القول اللغوي من رسالة إلى نصّ ولا يصبح هدفها نقل الأفكار أو المعاني بين طرفي الرسالة، ولكنها تتحوّل لتصبح هي غاية بنفسها وهدفها هو غرس وجودها الذّاتي في عالمها الخاص بها) [62] أو من الدّراسة اللسانيّة إلى السيميائيّة التي تتوخى تحليل جميع الأنساق الدّالة على اختلاف أنماطها وتعدّد صيغتها وأجناسها.

يتضح لنا مما تقدم، أنه على الرغم من هذا التّنوع والتّعدّد في الخلفيات التي انطلقت منها السيميائيات السرديّة لبناء نظريتها في الدّلالة إلّا أنّ هذا القّراء لم يمنع التقاء مجموع هذه الروافد والحقول المعرفيّة – الفلسفيّة، الشكلانيّة، الأنثربولوجيّة، اللسانيّة، المسرح...الخ- وتوحّدها في الأهداف والغايات ممّا يعكس نجاح المشروع الغريماسي على أساس هذا التّنوّع من خلال عدّة مستويات [63] :

أ/ نجاحه في البرهنة على أنّ الجهاز المفاهيمي، المستند إلى مدرسة براغ عامّة، الذي يخصّ تمييز الاختلافات الفونولوجيّة، يمكنه معالجة السرديّة.

ب/ نجاحه كذلك في الجمع بين تياري البنويّة: مدرسة براغ ومدرسة الدّانمارك (نظريّة اللغة ليلمسلف) التي تؤمن بشكل منسجم استمراريّة الثورة السويسريّة.

هوامش المداخلة:

1-عمر(مهيبل)، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط-01-2010، صص 160-161.

2 Greimas(Aljirdas Julian), Du Sens, Paris, Ed. Seuil,1970.p.49.

3 Greimas، Du Sens، Paris, éd Seuil, 1970. P.45.

4-5- Ibid.p.08-17.

6-جوزيف (كورتيس)، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر/جمال حضري، ط 01، 2007 منشورات الإختلاف، الجزائر ص55.

7-نفس المرجع،ص57.

8-George Mounin, La linguistique du 20 éme siecle, ED.P.U.F, Paris, 1978, p 40.

9-Ferdinand (de Saussure) ,Cours de linguistique générale ,Ed ,Payot, Paris , 5eme,1962,p .317.

-10Saussure, Cours de linguistique générale, p.23.

[11] ياكبسون (رومان) هالة (موريس) ، أساسيات اللّغة ، تر/ سعيد الغانمي ، كلمة والمركز الثقافي العربي ،ط 01 ، ص 111.

12 - Ferdinand (de Saussure), Cours de linguistique générale, p.30.

13 - Ibid, p.33.

14-Ibid, p.95.et voir aussi p.144.

15-حنون مبارك،مدخل للسانيات سوسير،دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب،ط-01،صص37-39.

16-المرجع نفسه، ص39.

17 Ferdinand (de Saussure), Cours de linguistique générale, p.116.

18-Ibid,P.166.

19-Ibid,Pp.160-161.

20-Ibid ,P.168.

21- Greimas(Aljirdas Julian), semantique stucturale, Paris, Ed. larousse , 1966 ,p.19.

22Ferdinand (de Saussure), Cours de linguistique générale, p.116.

23-J-P(Cocorda),Morphogénes Du Sens,Paris,Ed.Puf,1985,P.208.

24-Ibid,P.49.

25-Ibid,P.211.

26-عمر(مهيبل)،البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر،ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر،2010،ط-03،ص36.

27-الشاذلي(مصطفى)،البنيوية في علوم اللغة،تر/سعيد جبار،ط-01،صص25-26.

28-المرجع نفسه،ص38.

29-نفسه،صص27-28.

30 -31 - Greimas(Aljirdas Julian), semantique stucturale, p. 29. 30.

32 -33-ينظر،الشاذلي (مصطفى)، البنيوية في علوم اللغة،تر/سعيد جبار،ط-01،ص.28 .

34-35-المرجع نفسه،ص26.

36- Greimas(Aljirdas Julian), Du Sens.p.196.

37-J-P(Cocorda),Morphogénes Du Sens,Paris,Ed.Puf,1985,P.212.

38- Greimas et Courtes, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage.p.332.

39-Claud(Lévi-Strauss),L'antropologie Stucturale Deux,P.101.

40-Ibid,P.109.

41- 42-طاهر(بوعزيز)،بنوية كلود ليفي ستروس،مطبعة فضالة-المغرب، 1990،دط ،ص48.

43-الزاوي(بغورة)،المنهد البنوي بحث في الأصول و المبادىء،دار الهدى-الجزائر،ط-01،2001،ص148.

44- ينظر،الشاذلي (مصطفى)، البنيوية في علوم اللغة،تر/سعيد جبار،ط-01،ص31.

45-Julia(kristiva),le language cet inconnu, une initiation a la linguistique, paris, ed.seuil ,1981 ,p.296.

46- ينظر،الشاذلي (مصطفى)، البنيوية في علوم اللغة،تر/سعيد جبار،ط-01،ص.31

47- Oswald (Ducrot), et Tzvetan (Todorove), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, pp.42…48.

48-من أعلام اللسانيات الوظيفيّة (B. decourtenay) بودوان دي كورتناي N.s. Trobtzkoy نيكولاي تروبتسكوي(A.Martinet) أندري ماتيني ،رومان ياكبسون Romane Jakobsone وكارسفسكي وغيرهم من أعلام اللسانيات الوظيفية.

49- Oswald (Ducrot), et Tzvetan (Todorove), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, pp..46-45

50-Cércle(De Brague), Les Théses De 1929 Ed.Seuil, Paris 1969.Pp.30-31.

51-Bertel(Malmberg), Les Nouvelle Tendance De La Linguistique, Ed. P.V.F, Paris, 1968,P.138.

52- Oswald (Ducrot), Et Tzvetan (Todorove), Dictionnaire Encyclopédique Des Sciences Du Langage, P.225.

53-Ibid,P.225.

54-Greimas Et Courtes, Sémiotique, Dictionnaire Raisonné De La Théorie Du Langage.P.03.

55- Joseph (Courtes), Analyse Sémiotique Du Discours, De L'énoncé A L'énonciation ,P .75.

56-Joseph (Courtes), Introduction A La Sémiotique Narrative Et Discursive, P.153.

-57Groupe D'entrevene, Analyse Sémiotique Des Textes, Paris ,Ed.Puf ,1984,P .123.

-58 Greimas Et Courtes, Sémiotique, Dictionnaire Raisonné De La Théorie Du Langage.Pp.29-30.

-59 Voir, Joseph (Courtes), Analyse Sémiotique Du Discours, P.152

-60Joseph (Courtes), Analyse Sémiotique Du Discours, P.153.

61Jakobsone (Romane), Essais De Linguistiique Générale, Trad De L'anglais Et Préfacé Par Nicolas Ruwet, Paris, Ed.Minuit, 1963. Pp.214-220.

62-عبد الله (الغدامي) الخطيئة والتكفير من البنيويّة إلى التّشريحيّة (قراءة نقديّة لنموذج معاصر)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 1998، ص10.

63-محمد (بادي)، سيميائيات مدرسة باريس: المكاسب والمشاريع مقاربة ايستمولوجيّة، عالم الفكر، مجلّة فكريّة محكّمة تصدر في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلّد 35، ع/ 03، 2007، ص299.

.

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

العدد: 05/سبتمبر2012
ص:61 - 78
المجلد: 03
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973